



## علم السيمياء بين التراث والحداثة

رئيس التحرير

في الآونة الأخيرة الكتابات التي تناولت (علم السيمياء)، وتعددت البحوث كثرت والمقالات التي وردت إلى مجلة (التراث العربي) والتي تناولت هذا العلم من زوايا مختلفة، بعضها من وجهة النظر التراثية، وبعضها الآخر من وجهة نظر الدلالة الحداثية.

ووقع القارئ المتتبع لمجلة التراث العربي في حيرة من أمره للتوفيق بين مفهوم علم السيمياء في دلالته التراثية، وبين المفهوم الذي اكتسبه المصطلح على أيدي المشتغلين في علم الدلالة، أو المشتغلين في علم اللسانيات عامة.

ولتوضيح هذا المصطلح في المفهومين: القديم والحديث نكتب هذه الأسطر،

فعندما يحاول الباحث في مصطلح (السيمياء) أن يؤرخ بإيجاز لهذا العلم يلتقي في فترة مبكرة من حركة التأليف في المصطلحات العلمية بالعالم المشهور جابر بن حيان (ت 200هـ - 815 م) وهو - على الرغم مما أثير حول سيرته ومؤلفاته من جدال - كانت ثقته بنفسه ويعلمه أكبر من أن يسعفه على تحقيقها التطور العلمي الذي بلغه في عصره، فقد بلغ جابر مرحلة متقدمة في علم الكيمياء، وكان خياله العلمي الطموح يفضي به إلى أن ينقل المعادن التي يعالجها من حالة إلى حالة، وتطلع إلى أن يحول المعادن الخسيسة إلى معادن ثمينة، وكان هذا حلم البشرية منذ قديم الزمان، ولكن مخبره المتواضع بأجهزته لم يتمكن من ذلك، فتحول عنده الطموح من عالم التحقيق إلى عالم التخيل والوهم. وأنفق وقتاً كبيراً، وجهوداً كثيرة في إحالة الأجسام النوعية من صورة إلى أخرى،



وما دُمنا في سياق المعجمات، وفي إطار مصطلحي الكيمياء والسيمايا يجدر بالذكر أن نقول إن المعجمات الأجنبية فرقت بين هذين المصطلحين، فالكيمياء (Chemistry) هو علم الكيمياء المعروف و(Alchemy) يرمز في هذه المعجمات إلى ما نطلق عليه في العربية مصطلح السيمياء، وعند التعريف نقول هذه المعجمات الأجنبية إنه علم كيمياء القرون الوسطى<sup>(1)</sup>، وأطلق عليه بعضهم اسم (الخيمياء) لقرب اللفظتين بالدلالة لفظاً ومعنى، ويمكننا هنا ملاحظة التشابه في اللفظتين (السيمياء) العربية و(Alchemy) الأجنبية وخاصة بـ(ال) التعريف التي لازمت المصطلح على اعتباره من أصول عربية.

هذه صورة مقتضبة عن مفهوم (السيمياء) توضح رحلة المصطلح من علم الكيمياء، ذلك العلم التطبيقي الجاد الرصين إلى علم السيمياء الذي انحرف إلى السحر والخرافات والتطلع إلى المستحيل، وهذا المفهوم خرج من أيدي العلماء إلى أيدي المشعوذين والدجالين، فمارسوه قروناً طويلة، وجعلوه مورد رزق لهم، يخرفون به على العباد.

فلما جاء العصر الحديث، ورجع العقل العربي إلى شيء من أصالته نبذ العلماء المفهومات الخرافية، والتفسيرات الغيبية التي لا يعضدها العقل، وازدروا السحر والطلسمات والذيرنجات. فآلف الدكتور محمد صلاح الدين الكواكبي — وهو متخصص بالكيمياء — (كتاب السيمياء الحديثة) حاول أن يعود بمفهوم السيمياء إلى أصلها الذي انبثقت عنه، ولكن محاولته لم تلق الاستمرار؛ لأن مصطلح السيمياء كان قد اكتسب دلالة جديدة، جعلته يخرج من سياقات الكيماويين إلى سياقات اللسانيين، لأن العالم (دي سوسير) كان قد طرح مصطلح (Simiologg) فاستعمله سيميائيو باريس في حقولهم، "ومن هنا يبقى هذا المصطلح طريقة مفيدة لتمييز عملهم عن السيمياء (Simiotics) العالمية المتبعة في أوروبا الشرقية وإيطالية والولايات المتحدة"<sup>(2)</sup>.

وأطلق علماء اللسانيات العرب على هذا العلم اسم (السيميوطيقا) وترجموه تارة باسم (علم الرموز) وتارة باسم (علم الدلالة)، ونقلوا عن تشارلز موريس أن علم السيمياء يهتم بمعاني الإشارات قبل استعمالها في قول أو منطوق معين، ويؤدي علم الدلالة عند موريس إلى دراسة ما سماه دي سوسير: الترابطات، وما يسميه السيميائيون المتأخرون قوائم التبادل، ولقد حاول بول ريكور البرهنة على أن السيمياء تهتم بالعلاقات التبادلية فقط<sup>(3)</sup>.

وخير من وضّح مفهوم السيميائية الدكتوران: الرويلي والبازعي في كتابهما (دليل الناقد الأدبي) قالوا: "السيميولوجية (السيميوطيقا) لدى دارسيها تعني علم أو دراسة العلامات (الإشارات) دراسة منظمة منتظمة، ويفضّل الأوروبيون مفردة السيميولوجيا التزاماً منهم بالتسمية السويسرية، أمّا الأمريكيون فيفضلون السيميوطيقا التي جاء بها المفكر والفيلسوف الأمريكي تشارلس ساندرز بيرس.

(1) - راجع أي معجم أجنبي، فكلها تورد التعريف نقلاً عن بعضها.

(2) - السيمياء والتأويل، روبرت شولتز، ترجمة سعيد الغانجي، ص 247.

(3) - السيمياء والتأويل، روبرت شولز، ترجمة الغانجي، 248.

أما العرب، خاصة أهل المغرب العربي فقد دعوا إلى ترجمتها (بالسيمياء) محاولة منهم في تعريف المصطلح، والسيمياء مفردة حقيقية بالاعتبار، لأنها كمفردة عربية — كما يقول الدكتور معجب الزهراني — (ترتبط بحقل دلالي لغوي — ثقافي، يحضر معها فيه كلمات مثل: السمة، والتسمية، والوسام، والوسم، والميسم، والسماء والسيمياء (بالقصر والمد) والعلامة). وتتسمي السيمياء — أيًا كانت التسمية — في أصولها ومنهجيتها إلى البنيوية، إذ البنيوية نفسها منهج منتظم لدراسة الأنظمة الإشارية المختلفة في الثقافة العامة<sup>(1)</sup>.

ومن أشهر أعلام السيميولوجيا، تشارلس ساندروز بيرس، ورولان بارت، وغريماس، درومان ياكسون، وأمبرتو إيكو، وما يكل رفينير، وجوليا كريستيفا، وباربرا هيرنستاين سمث.

ولئن كان دي سوسير هو الذي استخلص مسمى السيميولوجيا، فإن رولان بارت هو الذي مارس التحليل السيميولوجي على أكمل وجه، جاء بما يقرب مقولة سوسير إذ زعم أن اللسانيات هي الأصل، وأن السيميولوجيا فرعٌ منها، ثم جاء جاك دريدا الذي اعترف بجهود بارت، إلا أنه دعا إلى قلب مقولة بارت نفسها، ولا نريد أن ندخل في تفاصيل هذه التحليلات، وإنما نقول: إن كلمة علم الدلالة Semantique المشتقة من الكلمة اليونانية Sēmaino "دل" والمتولدة هي الأخرى من الكلمة séma أو العلامة. هي بالأساس الصفة المنسوبة إلى الكلمة الأصل Sens أو المعنى، فالتغير الدلالي هو تغير في المعنى، والقيمة الدلالية لكلمة تكمن في معناها<sup>(2)</sup>.

وتعطي كريستيفا، وجماعة (نيل كيل) للدرس السيميائي امتداده الأقصى باعتباره منهجية للعلوم الإنسانية، ولذلك فتقّ الدارسون أنواعاً مختلفة تتدرج تحتها كالسيمائية الطبيعية والسيمائية الكبرى، والبيوسيميائية، والتحليل السيمي، والإثنوسيميائية، والحقل السيميائي، والحكم السيميائي، والشحنة السيميائية، والنمو السيميائي، وكثير غير هذه المصطلحات المنبثقة من مفهوم السيميائية والتي يحسن بالدارس المهتم بهذا الاتجاه أن يلم بها<sup>(3)</sup>.

هذه إطلالة مقتضبة على علم السيمياء في مفهومه التراثي والحداثي، أرجو أن تكون قد وضحت مفهوماً حام الكتاب حول دلالاته، فوفقوا تارة، وجانبهم التوفيق تارة أخرى.



(1) - دليل الناقد الأدبي، الرويلي والباذعي، ط3، 177 - 178.

(2) - دليل الناقد الأدبي، الرويلي والباذعي، ط3، 177 - 178.

(3) - لمزيد من المعلومات عن السيميائية انظر: قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية، د. أميل يعقوب، بسام بركة، مي شيخاني، 118 - 124. فلسفة الأدب والفن، د. كمال عبد 172. معجم المصطلحات الأدبية، إبراهيم فتحى، 206 موسوعة علم النفس. حسين عبد القادر، 402 - 404. الموسوعة العربية الميسرة. محمد شفيق غربال، 1057. والكتب المقصورة على بحث السيمياء.